غياب

رحيلٌ عن «سجن النساء»

نوال السعداوي تأصيل النِّسوية في الأدب والفكر

رحلت الكاتبة المصرية في مفتتح عقدها التاسع، بعد مشوار تداخل فيه أكثر من اتجاه في سبيل تحرير المرأة: من الكتابة الإبداعية والفكرية إلى النضال الميداني

القاهرة ـ **سناء امين**

لم تكتفِ نوال السعداوي (1931-2021)، التي رحلت عن عالمنا أمس الأحد، بالانشغال الفكري بقضايا المرأة ضمن ما يُعرف بالحركة النِّسوية، حيث إنها اعتمدت الأدب بتنويعاته المختلفة، من المذكّرات والسيرة الذاتية إلى القصّة والرواية، كروافد أخرى في معاركها التي خاضتها ضدّ مُثلّث السلطة السياسية - الدينية - الاجتماعية. وطبعاً، كان لهذه المعارك جانبها العمليّ والميداني، الذي نجد أثره في نصوصها أيضاً.

بالعودة إلى مسار كتاباتها، سنجد أن السعداوي بدأت من الأدب تحديداً، فكان أول منشوراتها مجموعة قصص قصيرة بعنوان «تعلّمت الحب» (1957)، وهو عمل مرّ عابراً، حيث صُنّف، على عجالة، ضمن كوكبة الكتابات النسائية التي لا تُؤخذ على محمل الجدّ. وحتى الإشارة إلى تحرير المرأة، كانت تُوضع في خانة التظلّم ولا يصل صداها بعيداً.

لكنّ السعداوي نجحت بسرعة في تخطّي مثل هذه الحواجز. إذ عرفت، حين نشرت كتابها «مذكّرات طبيبة»، كيف تصل إلى جمهور أوسع، ولم تكن حيلتها وقتها غير تغذية الأدب بتجربتها الواقعية، وهي التي تعمل طبيبة؛ تلك المهنة التي يعترف بسُلطتها المجتمع، أو أنّه، بالأحرى، مجبَرٌ على هذا الاعتراف، على خلفية الحاجة إلى نساء يمارسن الطب.

هذا الموقع أتاح أيضاً للسعداوي ما هو أكثر من بناء «هويّة أدبيّة»، فقد باتت مطّلعة على إشكاليات المرأة عبر طيف واسع من الحوادث اليومية: تعنيف، إجهاض، أمّية، طردٌ من البيت... تراكُمُ تلك الحوادث كان يوازيه تراكمٌ في الإصدارات. هكذا، ستنتقل الكاتبة المصرية إلى ما هو أبعد من الكتابة ذات النزعة السيرية، أو التوثيقية، بالاشتغال على التخييل الأدبي كحامل لقضايا المرأة، وتصوُّر ممكنات تحرّرها، وهو ما نجده منذ عناوين روايات مثل «سقوط الإمام» و«موت الرجل الوحيد على الأرض»، و«جنّات وإبليس»، و«موت معالي الوزير سابقاً».

نُظر إلى جميع هذه الأعمال - ربما منذ عتبة عناوينها - باعتبارها استفزازية، وهو ما كلّف نوال السعداوي الدخول في سجالات عدّة مع فئات متشدّدة، فوصل الأمر إلى تهديدات بالقتل، فضلاً عن رفع قضايا ضدّها بتهَم مثل ازدراء الأديان ونشر الفتنة وخدش الأخلاق، وإلى مطالبات بإسقاط الجنسية عنها. كذلك رُفعت قضيّةٌ للتفريق بينها وبين زوجها. لكنّ الهجوم الأخطر ضدّها لم يكن بسبب كتاباتها الأدبية، بل لتحرّكها في الفضاء الفكريّ، وهو الانتقال الأبرز في مسيرتها. كان ذلك في سبعينيات القرن الماضي حين نشرت مؤلّفات أساسية في سياق كتابات تحرير المرأة: الحديث هنا عن أعمال مثل «المرأة والجنس» (1974)، و«الوجه العاري للمرأة العربية» (1977)، و«المرأة والصراع النفسي» (1977)...

لم تكن هذه الأعمال نقلةً نوعية في مسار نوال السعداوي وحدها، بل في مجمل ما يُكتب ضمن القضية النِّسوية العربية. ولم يكن وقتها هذا المصطلح (النِّسوية) متداولاً، بما يعنيه من ترافق البُعد النضالي والأفق التنظيري. ولعلّ كتابات صاحبة «توأم السلطة والجنس» تُمثّل الحجر الأساس في هذا السياق، كذلك فإنّها لحظةَ تلقّف المرأة قضيّةَ حقوقها، والخروج نهائياً من التعبير عنها بلسان الرجل. فقبل سلسلة المؤلفات الفكرية التي وضعتها السعداوي، كان مثقّفون رجالٌ أبرزُ مَن ينهضون بهذا البُعد، مثل قاسم أمين في مصر، والطاهر الحدّاد في تونس. من الوجيه هنا وضْعُ مؤلّفات السعداوي في سُلّم تاريخي للعمل من أجل تحرير المرأة عالمياً أيضاً. تمثّل الكاتبة المصرية أحد وجوه ما يسمّيه المؤرّخون «الموجة الثانية من الحركة النِّسوية»، وهي المرحلة التي دخلت فيها نضالاتُ المرأة مستوىً أبعد من المطالبات بالحقوق المدنية؛ مثل حقّ الاقتراع والعمل، والمطالبة بتوزيع عادل للأدوار الاجتماعية والامتيازات، من خلال تفكيك منظومة القيَم التي تُنتج التمييز ضد المرأة. وهنا ظهرت كتابات سيمون دو بوفوار وكايت ميليت، وأطلقَت مفاهيم مثل البطريركية وسياسات القهر والذهنية الذكورية، وبدأ الحفر أنثروبولوجياً في فهم أسباب عدم التكافؤ التاريخي بين الجنسين.

صبّت نوال السعداوي معظم هذه الأطروحات في اللسان العربي، وهو ما جلب إليها المزيد من التهجّم، ليس فقط من تيارات التشدّد الديني، بل من السلطة السياسية أيضاً. إذ لا يَخفى أنّ تحرير المرأة قاطرةٌ لتثوير المجتمع برمّته. في 1981، اعتُقلت السعداوي في عهد أنور السادات، ضمن تضييقاته على الحرّيات السياسية، وكان بذلك يحاول أن يضرب عدّة عصافير بحجر واحد: تخويف المعارضة ذات المقولات الثقافية، وكسب ودّ الحركات الإسلامية. والمفارقة أنّ سياسة السادات انتهت بمقتله من قِبَل متشدّدين إسلاميين، وقد أُفرج عن نوال السعداوي تبعاً لذلك في السنة نفسها، حيث لم تكن قد أكملت عاماً في السجن.

مرّة أخرى، اعتمدت الكاتبة المصرية على تجربتها الذاتية لتغذية عالمها الإبداعي، فوضعت كتاب «مذكّرات في سجن النساء» الذي صدر عام 1983، ولقي رواجاً جماهيرياً لافتاً، ولعلّه اليوم كتابها الأكثر مقروئية. يعود ذلك إلى كونه حلقة وصل بين الكتابة الفكرية التي يجد الجمهور صعوبة في التعامل معها، والكتابة الأدبية التي تميل نحو الخيال، كذلك يمثّل العمل تجربةً حيّة تُعبّر عن مسيرة نضالية ثرية.

نوال السعداوي في منزلها في القاهرة، 2015 (Getty)

راوحت بين التخييل والفكر، وغذّت أعمالَها بتجاربها الخاصة

صبّت معظم أطروحات الفكر النِّسوي في الثقافة العربية

صورة شكّلتها السجالات

خلال مشوارها الإبداعي، الذي بدا في النصف الثاني من خمسينيات القرن الماضي، أصدرت نوال السعداوي أكثر من خمسين عملاً، بين روايات، ومجموعات قصصية، ونصوص مسرحية، وكتابات سيرة ذاتية، وأعمال فكرية. من أبرز تلك الأعمال «أوراقي، حياتي»، و«الوجه العاري للمرأة العربية»، و«سقوط الإمام». لكنّ الوصول إلى هذه الأعمال يمرّ في الغالب عبر صورتها الحاضرة في سجالاتها، والتي يختلط فيها تمجيدُ المناصرين بتشويهات المتنقّدين.

تصويب

هدايا الحياة

باسم النبريص

أحياناً بمضّني التفكير: تراني أتتبّع، بشكل غير عادل، آثارَ الحياة، في مرورها عليّ، أناءَ الليل وأطرافَ النهار، فأتريّد على سلبياتها، وأُطنّش إيجابياتها، ولا أكتب عنها؟

هل تُراني فاقد الوعي والإحساس بقيمة النعمة، حالي كحال جيل خليجيّ مُرَفَّه حدَّ الابتذال؟ وأنا الذي، مثل كلّ شعبي، لم يُنجَّنا أحدٌ من يد الشرير، ويا ما مرّت علينا بلايا وهفايا؟

أم هو لا هذا ولا ذاك، وإنّما تكمن المسألة في نفسية مَن يرى إلى الحياة والوجود بعين الشاعر؟ أو بعين المثقف النقدي، إلخ؟

لا أعرف. ومع ذلك، ما كان لي يوماً أن أكفر بنعمة، مهما صغُرت، من هدايا الحياة اليومية، فما بالك بكبار هداياها مثل الحصول على سقف يؤويك من البرد، ولقمة تُدفِّئ عروقك، بوصفك تنتمي إلى فصيلة الثديّات الناطقة، مثل أشقّائك في الفصائل الأخرى، هؤلاء الذين يبدون راضين جداً، لو توفَّر جُحْرٌ وقُوْت؟

أحياناً يحدث لي هذا، حين أصحو من غفلاتٍ طويلة، على لمعة وعي: اشكر ظروفك يا رجل، فما أنتَ فيه يتمنّاه مليارات من رفاقك البشر. قدّر النعمة، قبل زوالها، ولا تكن مثل ذلك الجيل التعيس البئيس.

لهذا، عليك الآن أن تجزل الثناء لأوّل فنجان قهوة، ولأوّل شجرة بُن نبتت على سطوح الجبال، في هذا اليمن المجروح. فلا شيء يعدل أن تفتتح صباحك، البادئ منذ الفجر الكاذب، بعبق قهوة أصيلة الوجود وثابتته منذ ألوف سنين.

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

صوت جديد

حكايات جدّ تي عن طنجة وأهلها

يوسف شبعة الحضري

تقف هذه الزاوية من خلال أسئلة سريعة مع صوت جديد في الكتابة العربية، في محاولة لتبيّن ملامح وانشغالات الجيل العربي الجديد من الكتّاب

طنجة ـ **العربي الجديد**

يوسف شبعة الحضري

■ كيف تفهم الكتابة الجديدة؟

في نظري، ليس هناك كتابة جديدة وأخرى قديمة. الكتابة هي الكتابة، مرآة تعكس اهتمامنا وما يشغلنا كمبدعين. أن يجد القارئ في ما نبدع واقعه، أن نعبّر عن طموحاته وخيباته وآماله، لأنّ الكاتب، عندما يكتب، يستعير عوالم الناس وانشغالاتهم وذواتهم. يجب على الكتابة ألّا تحيد عن هذا، عن هموم الناس وآلامهم وما يحيط بهم.

■ هل تشعر بنفسك جزءاً من جيل أدبي له ملامحه؟ وما هي هذه الملامح؟

كجيل الثمانينيات، عشنا مجموعةً من الأحداث، تختلف عن الجيل الذي سبقه. من هذه الناحية، تختلف الكتابة الجديدة عمّا سبقها. هذه الأحداث تبرز في أعمالنا تلقائياً لأنها شكّلت جزءاً من وعينا، فالمبدع لا تصنعه القراءة فقط، بل محيطه أيضاً. الكتابة ترميمٌ، إذاً، أو بالأحرى عملية بناء لوعينا الجمعي في خضمّ هذا المدّ الجارف من الوقائع التي لا تتوقّف. لكن يبقى الملمح الذي لا يختلف عليه مبدع: الانتصار لكرامة الإنسان وحقّه في التعبير.

■ كيف هي علاقتك مع الأجيال السابقة؟

علاقةٌ بالقراءة. فحبْل السرّة موصول مع رؤاد الرواية العربية مثل نجيب محفوظ، سهيل إدريس، عبد الرحمن منيف وغيرهم. أمّا من حيث المادة التي أستقي منها عوالمي الروائية، فما زلت مشدوداً إلى حكايات جدّتي عن مدينتي، طنجة، وأهلها.

■ كيف تصف علاقتك مع البيئة الثقافية في بلدك؟

أحاول قدر الإمكان أن أساهم في خلق بيئة ثقافية حُرمنا منها في طفولتنا.

العمل الجيّد لا يحتاج إلى ناشر معروف بالضرورة، بك إلى قارئ جيّد

بطاقة

يوسف شبعة الحضري كاتب وصحافي مغربي، من مواليد طنجة عام 1982. صدرت له مجموعة قصصية بعنوان «صدى الذكريات: نشيد الفقد» (2015)، ورواية بعنوان «الشريفة» (2018). وهو مؤسّس مقهى «الشريفة» الثقافي في طنجة.

■ كيف صدر كتابك الأول؟ وكم كان عمرك؟

صدرت مجموعتي القصصية الأولى قبل خمس سنوات، في الثلاثين من عمري. وجاءت بعد تفاعل كبير معها من طرف القرّاء. ولكن، في سنّ مبكّرة، وقبل ظهور وسائط التواصل الاجتماعي والمواقع الإلكترونية، كنت أكتب بالجرائد المحلية.

■ أين تنشر؟

أؤمن، شخصيًا، بأنّ العمل الجيّد يحتاج إلى قارئ جيّد، وليس بالضرورة إلى دار نشر معروفة. فكم من كتاب حاز على جائزة عالمية ولا يستحقّ القراءة، تبقى أن أعمالي نشرت مع دار «سليكي أخوين» بطنجة.

النص الكامل على الموقع الالكتروني

إطلالة

لتفتَحْ تلك البوّابات التي في أعماقك

عن معجزة الشعر

يلمس الشعر حقيقة العالم بكلمات وبتراكيب لغوية تبدو غير حقيقية وغير عقلانية، بيد أنّها - وفي لاعقلانيّتها هذه - هي أكثر تعبيراً عن عالم الإنسان الداخلي

خالد النجار

جوهر الشعر ومعجزتُه أنّه مِثل الحبّ والموت قديمٌ قِدَم العالَم، صاحَب الإنسانَ من عصوره البدائية السحيقة الأولى. أجناس أدبية كثيرة ظهرت واختفت عبر الأزمنة والأحقاب. زالت الملاحم وحلّت الرواية محلّها في الزمن الحديث الذي دشّنه ثيربانتس صاحب دون كيخوته. ومن أدبنا العربي اختفت المقامة كشكل قصصي والخرافةُ التي وضع ثبْتاً لها ابن إسحاق النديم في «الفهرست»، وليس ابن النديم كما هو شائع.

ومعجزة الشعر أنّه سبق كثيراً من الأشكال والأجناس الأدبية واستمرّ بعد أن اندثرت. بل الشعر هو مؤسّس اللغة بمعناها الأنطولوجي، لذلك قال فريدرش هولدرلين: «كلّ ما تبقّى كان قد أسّسه الشعر».

والشعر حجر الأساس في تاريخ آداب الشعوب. فحُرّ الأدب هو الشعر. بدأ تاريخ الآداب العربية بالشعر الجاهلي. ولغة الشعر الجاهلي هي أساس لغة العرب. وفي حديث لابن عبّاس، عندما سُئل عن تفسير معاني كلمات القرآن، قال: «تجدونه في لغة العرب في أشعار الجاهليين». وكذلك الأدب اليوناني بدأ شعراً بغناء الشاعر الأعمى هوميروس، الذي غنّى مجد اليونانيين في القوارب. في البدء كان الشعر. الشعر هو المؤسّس لآداب الشعوب وهو الذي استمرّ اليوم عبر آداب العالَم.

هكذا يلمس الشعر حقيقة العالم بكلمات وبتراكيب لغوية تبدو غير حقيقية وغير عقلانية، بيد أنّها - وفي لاعقلانيّتها هذه - هي أكثر تعبيراً عن عالَم الإنسان الداخلي الذي هو أكثر رحابةً من العقل. مع رامبو، ولوتريامون، وفان غوخ، وفريدريش نيتشه، وسيزان الرسّام، أجل؛ فإشكالية الإبداع واحدة في الشعر والرسم.

جاء الشعراء والفنّانون القوالب والأشكال المتوارثة؛ هدموا المدارس. كان سيزان يسخر بقوّة من مدارس الفن. بيكاسو عبّر عن معنى مُقارب وكتب جملته الشهيرة: «منذ فان غوخ تحوّلنا إلى عصاميّين». ذلك أنّ الفن يأتي من الحياة، من العُمق الغامض للإنسان، وليس من أكاديميات ومدارس الفن. وهذا غيّر زاوية النظر والقراءة، ووقع التحوُّل الخطير؛ لم تعد هناك قواعد مرجعية يُحتكَم إليها ولا أشكال مقدّسة يجب أن تُراعى، كما هي قواعد الشعر من وزن وروِيّ وقافية، وقواعد الفن الكلاسيكي كما عرفه رسّامو عصر النهضة في إيطاليا وهولندا.

وقد نتج عن ذلك أن صارت القصيدة واللوحة، أو أيّ عمل فنّي، مُتضمّنةً قواعده. العمل الفنّي هو الذي يُحدِّد قواعدَه. والناس لا يدرون أنّ الخروج عن القواعد هو أكثر عسراً وصعوبة من الامتثال إليها والخضوع إليها. أنْ تتبع القواعد هو كما لو أنّك تسير في طريق معبّدة. أمّا أن تُبدِع أشكالك فهوَ أن تشقّ دربك الخاصّ وتَسير وسط الليل والمجهول.

هذا التحوُّل دفع القارئ لأن يتحوّل إلى مُشارك في الخلق. صارت القراءة خلْقاً ثانياً؛ إذ لم تعُد لقاءً بين القارئ والشاعر حول شكل واصطلاح خارجي من وزن وقافية. وهكذا تعدّدت عوالم القصيدة بتعدُّد قرّائها. بهذا المدخل علينا قراءةُ الشعر الحديث.

تلك الغرفة المحرّم فتحها في حكايات «ألف ليلة وليلة»

لتفتَحْ تلك البوّابات التي في أعماقك، والتي تفضي إلى ما تجهله. عندما فتح رامبو تلك البوابات وكتب ذاك المجهول الذي يتدفّق منها، أدرك أنّ ما يكتبه ليس صادراً عنه. وكتب جملته الشهيرة: «أنا هو الآخر». لم تكن تلك الجملة مجرّد لعب لغويّ، لم تكن بلاغةً خاوية. كان رامبو يدري ما يقول، كما لو كان هناك صوت في أعماقه ـ يجهله ـ يُملي عليه كلماته. ونوادرُ هُم الناس الذين هُم على تواصُل مع أعماقهم السحيقة. إنها عوالم مخيفة؛ شبيهة بتلك الغرفة المحرَّم فتحها في حكايات «ألف ليلة وليلة»، والتي إذا ما دخلَها الإنسان تاهَ في فضاءاتٍ أخرى لن يغادرها أبداً.

(شاعر ومترجم تونسي مقيم في أمستردام)

يحيى الشيخ، من سلسلة بعنوان «بريد البلاد»

فعاليات

يستضيف مسرح **مترو المدينة** في بيروت حفلاً للمغني اللبناني **عبد الكريم الشعار**، عند الثامنة من مساء السبت المقبل. يؤدّي الشعار أغنية **أهل الهوى** للسيدة أم كلثوم (كلمات بيرم التونسي وألحان زكريا أحمد)، ويرافقه زياد الأحمدية (عود)، ومحمد نحّاس (قانون)، ومكرم أبو الحسن (كونترباص)، وأحمد الخطيب (إيقاع).

تنطلق، اليوم الاثنين، فعاليات الدورة التاسعة عشرة من تظاهرة **24 ساعة مسرح دون انقطاع** في مدينة الكاف التونسية، وتتواصل حتى السابع والعشرين من الشهر الجاري. يتضمّن البرنامج ندوة فكرية بعنوان **المسرح وتكنولوجيا المعلومات** ومائدة مستديرة بعنوان **في الثقافة والسّياسة: الآن وقبل الآن**، إلى جانب العديد من الورشات التدريبية حول التمثيل والدراما تورجيا.

حتى التاسع من الشهر المقبل، يتواصل معرض **حجر وطوب: مفترق طرق** للفنانة التشكيلية القطرية **شعاع علي**، في **غاليري إيوان القصار** بالدوحة، والذي افتتح في التاسع من الشهر الجاري. تقدّم الفنانة تركيبات من الأحجار المستمدّة من البيئة المحلية لتطرح تساؤلات حول تحوّلات الهوية ومؤثّراتها المتعدّدة.

تحيي **فرقة الخان للموسيقى والغناء**، عند السادسة من مساء اليوم، في **ساقية الصاوي** بالقاهرة، حفلاً تقدّم فيه مقطوعات متنوّعة من أعمال الرحابنة ومحمد عبد الوهاب وعبد الغني السيّد وبليغ حمدي ومحمد الموجي وجمال سلامة. تأسست الفرقة عام 2014، وهي تعمل على استعادة موروث الأغنية العربية.